
مقدمات في المنهاج
عبد السلام ياسين


بسم الله الرحمن الرحيم

عبد السلام ياسين





الطبعة الثانية: 2018/1439

ISBN: 9789953506043

رقم الحساب للتحويل المصرفي

Name: DAR LOUBNAN LIL TIBAA WAL NASHR

ACC: 1578046

BLOM BANK SAL- MAIN BRANCH

RACHID KARAMEH STREET

BEIRUT LEBANON

IBAN: LB61 0014 0000 4002 3041 5780 4614

(CURRENT USD)

SWIFT CODE: BLOMLBBX

بشامون - الطريق العام ـ مجمع بشامون الصناعي

هاتف و فاكس : 5813203 - 00961

البريد الإلكتروني: dar@darlubnan.com

الموقع الإلكتروني: www.darlubnan.com

تمهيد

كلمة مفهوم..

يقسم الفقهاء الأصوليون الدلالة إلى لفظية ونصية يجمعها اصطلاح: «منطوق» وإلى دلالة مفهومية، ويقولون: دلالة المنطوق في مقابل دلالة المفهوم. وعندئذ يتحدثون عن مفهوم المخالفة. وبعضهم يجعل الدلالة اللفظية في مقابل الدلالات المفهومية التي تدخل فيها الدلالات النصية، وإذ ذاك يكون لديهم : مفهوم الموافقة، ومفهوم المخالفة، ومفهوم الشرط، ومفهوم الوصف، ومفهوم اللقب، الخ.

هذه اصطلاحات أصولية من ورائها جهود طويلة غنية بالاجتهاد والتمحيص والنقد، أسسها علماؤنا لتكون لهم آلات طيعة تساعدهم على فهم نصوص الشريعة واستنباط ما في أحشائها من علم. وهي اصطلاحات متخصصين بعد ذلك، ليس عنها نتحدث.

كلمة مفهوم عند المثقفين المعاصرين كلمة مترجمة تدخل في النسيج الفكري لخطاب الفلاسفة والأدباء والاجتماعيين وسائر تلك الأصناف، ومع هؤلاء أيضا نفتح الحوار برغبة منا أكيدة. ولن نستطيع دائما أن نقوم بالترجمة المعاكسة لكي نوضح للمعرب القح حتى يكون الفهم سواء بين الجميع. وإلا لزم أن نخصص ثلاثة أرباع حجم الكتاب لنقوم بدور -أف ! هذه كلمة أخرى مترجمة- الترجمان. وذلك متعذر. ولا مناص من اقتحام هذه العقبة لنتحدث للناس بما يفهمون. حتى إذا عز الإسلام، وانتصرت لغة القرآن، وصارت لنا الأشياء، في ملكنا ومن صنعنا وتحت سيادتنا، عبرنا بالفصيح الأصيل وذهبت الرطانة الهجينة بذهاب التبعية.

بيد أننا لن نستغني أحيانا عن كشف أصول بعض المصطلحات العصرية وإعادة سيرها على أعقابها لنراها ترد علينا ونحن على علم بهويتها وما تحمله، فإن المستوردين من غيرنا، خاصة المثقفين الأكاديميين المزدوجي الثقافة أو المثلثيها والمربعيها، إنما يلقفون هذه الألفاظ جزافا.

المفهوم عندهم هو «المعرفة الأولية بموضوع ما» مرتبطة بلفظ محدد ذي دلالة علمية أو فلسفية محددة. هنالك معاني «الدلالة» ومعاني «الاصطلاح»، لكن المثقف المعاصر المشغوف بالدخول في منتدى «الفكر الكوني العالمي» لن يفهم عنك حتى تأتيه بألفاظه «المكرسة». ها أنت ترى الفكر المترجم يترصدنا في كل جملة. كما أنه لا يكفيه أن يقال: نجيب عن هذه الأسئلة حتى تقول: إشكاليتنا كذا وكذا، مرت على فكره موجات و«موضات» الجدلية والوجودية والبنيوية الخ، فترك كل موج رواسبه. كلمة «مفهوم» تترجم اللفظ الأعجمي «Notion».

ثم يعتري مثقفنا الولوع بالتركيب والبناء فيستعمل مفهوم «جهاز مفهومي» «Appareil notionnel». معك شبكة مترابطة أو متآلفة من المفاهيم تمكنك من الجولان بالعرض والتأكيد والتكوين والمقابلة والنقد داخل إطار «إشكاليتك» أي «Problématique» أي مجموعة أسئلتك العلمية أو الفلسفية السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي طرحتها في مدخل بحثك عن «منهجية» «موضوعك» بالنظر لما ترسمه من أهداف وما معك من وسائل.

الفصل الأول

مفاهيم

- معرفة الحق
- جسور من أجل الحوار
- اقتحام العقبة
- الرحمة والحكمة
- النداء والاستجابة

معرفة الحق

وسائل يسأل : من أي قاموس تتكلم ؟ وهل يجوز شرعا ويفيد بلاغا أن تتجشم كل هذا العناء، وكل هذا التغرب في ذلك الفضاء ؟ ألا نتعرض ويتعرض خطابنا للذوبان في تلك التيارات ؟

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قصد قوما أو قصدوه قرأ عليهم آيات من كتاب الله عز وجل، فكان فيها البلاغ، أبصرت قلوب قوم وعقولهم أم عميت. وكذلك أمره الله سبحانه حين بين له أن القرآن هو الهداية في مثل قوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء، 9)، وبين له أن تلاوة القرآن على المؤمنين تزيدهم إيمانا في قوله عز من قائل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ (الأنفال، 2).

وقد وصف الله عز وجل لنا تأثير القرآن العميق في قلوب الذين سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقولهم. قال تعالى يخبرنا عن حال جماعة من النصارى تحولوا إلى الإسلام: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة، 83). هكذا معرفة الحق تتسرب مباشرة من القرآن المسموع بالقلب والعقل، لا وسائط فكرية ولا «مفاهيم» يألفها نصارى العرب دون سائر العرب.

فأي شيء يتسرب، أي شيء يتوقع أن يتسرب، من قنوات المفاهيم والإشكالية والجهاز المفهومي؟ ألا يوشك الريح الجارف أن يلقينا إلى تلك الأجواء المختلطة حين نفتح نوافذ الحوار ليستنشق قوم هواءنا ؟

مهلا مهلا! إن تعاملنا بمرونة الحكمة مع أساليب الفكر المعاصر يدخل في إطار –ها أنت ترى المترجم يلاحقنا !– تعاملنا مع الواقع المعاصر الكلي. كان الإسلام في مولده القوة الناهضة في العالم، لم يلبث الإسلام أن ساد جنده، فكان القرآن في تلك المراحل هو الخطاب وهو المعرفة وهو الحق. أما الآن

فالمسلمون حاملو دعوة الإسلام قابعون في زاوية متواضعة منهزمة جدا من زوايا التاريخ المعاصر والواقع الحضاري المعاصر رغم أعدادهم الكبيرة. أفكار أخرى تدير الفكر البشري، وقيم، وعلوم، وتكنولوجيا.

ويبزغ في أفق التاريخ المعاصر أمل جديد للإسلام، طليعة متحفزة لا مناص لها من أن تغشى كل المنتديات، وأن تلج كل الأبواب، وأن تداخل العالم وتخالطه، وأن تخاطب بكل فصاحة وبكل آلة للبيان، شأن الواثق بذاتيته، المعتز بشخصيته. وإن نصاعة بياننا حين نعرب عما يريده جند الله وما يخططون إحداثه في حياة الأمة والعالم لمن أجل وسائل الدعوة. هاهم أولاء المثقفون والعالم أجمع يذكرون الإسلام بانبهار لما يرونه من «بطولات» المجاهدين المسلمين في جنوب لبنان. لأول مرة ينهزم جيش اليهود، لأول مرة يقوم المسلمون بحرب شعبية لا هوادة فيها ولا تراجع رغم القمع الوحشي. هذه الأحداث هي التي ستجعل المثقفين من بني جلدتنا يحترمون في قرارة أنفسهم الإسلام، فتتغير نظرتهم إليه، ويبحثون عن فهم جديد لدين الأمة مرتبطا بطموحها ومستقبلها لا بماضيها المجيد فقط ولا بحاضرها الكئيب. «بطولات» المجاهدين في أفغانستان قمة رغم فرقة ذلك الجند الكريم. أمريكا بخيلائها وكبريائها وعملائها اليهود تنهزم في لبنان، روسيا أجلبت على إخواننا الأفغان بكل ما لديها من عتاد متطور أعدته لتقاوم به وتغزو العالم المصنع والقوة المنافسة، فإذا بجماعات معها الإيمان بالله عز وجل ومعها حب لقائه بالموت في سبيله تصنع العجائب.

جسور من أجل الحوار

لسنا بحمد الله ممن يخاف عليهم أن ينزلقوا في دروب الألفاظ فنتوحل في مستنقع يمتزج فيه كلام الخالق بكلام البشر، وتلتزج فيه معرفة الحق بـ«المعرفة الأولية بموضوع ما». نسأل الله الحفظ فإنه لا حول ولا قوة إلا به. مستنقع الخلط بين الاشتراكية والعدل، بين الديمقراطية والشورى، بين الرأسمالية و«حرية» التملك في الإسلام. إذا كانت قلوبنا متعلقة بالله عز وجل ورسوله وكتابه، فإن تفتحنا على الواقع إنما هو تفتح ذو مغزى، ذو دلالة، ذو وجهة. إنه تفتح على آيات الله في الكون، لا نرى العالم حركة سائبة مستقلة، إنما نراه ونرى أنفسنا في قبضة الله عز وجل. الكون مسخر لنا، ومن هذا المنطلق نكسب إن شاء الله تعالى وضوح الرؤية وثبات الخطى وسلامة التقدير.

من كان الله ربَّه رضا، وإلهَه طاعة، ومحمد صلى الله عليه وسلم قائدَه فمن مخيم الجهاد يحاور وعن الحق يترجم. فإن حاور الناس ببيان القرآن وبرهان العقل فمن موقف الذي عنده ما يعطي، ولن يهدد بيانَه وبرهانَه السيلُ الجارف الذي يغرق العالم: سيل الإعلام الملحد المنصب على الأسماع والأبصار بواسطة الكلمات والمفاهيم والصور المقروءة والمسموعة والمبصرة، تحملها تقنيات الطبع وألوانه، وإخراج المخرج، وتمثيل الممثل، وفصاحة الإذاعي، وبراعة الكاتب، وقصة الفنان، وموسيقى الإيقاع، ورأسمال تجار الكذب، واستراتيجية أجهزة الحكم.

من وسط هذا الهذيان المحموم لابد للفكر الإسلامي أن يعلو، لابد أن يخترق الطبقات المتراكمة المتكدسة من فلسفة الإلحاد، وزندقة الإباحيين، وعبث العابثين، وإديولوجيات الثورة القومية الاشتراكية التي تعيب الإسلام وتعاديه، أو تتملقه، أو تحاول الالتصاق المنافق به.

اقتحام العقبة

ما زال أئمتنا رحمهم الله يصدرون كتبهم بفقرات يوضحون فيها مقاصدهم ومصطلحهم ليكون القارىء على بينة من المسار المطلوب. من هؤلاء الأئمة الأستاذ حسن البنا رحمه الله. نراه في «رسالة التعاليم» تلك الرسالة التي تشمل، على قصرها، قواعد العقيدة والتربية والعمل، ذكر رحمه الله في أولها ما يريده بكلمة «الفهم» فسرد الأصول العشرين في العقيدة ثم قال : أريد بالإخلاص كذا، وذكر مكان إخلاص الوجهة لله عز وجل في ربط قلب جند الله، وقال : أريد بالعمل كذا، وأريد بالجهاد كذا، إلى آخر ما فصله رضوان الله عليه.

وأرى، أنا العبد العاجز، أن التفاهم بيني وبين قرائي الأعزاء أزداد عنه عجزا إن لم أقدم المفاهيم الرئيسية التي تشكل الحبل المنهاجي الحامل لمضمون ما أريد تبليغه بحول الله.

رأس هذه المفاهيم العبارة المقتبسة من سورة البلد: «اقتحام العقبة» إلى الله عز وجل. هذه العبارة لم آخذها صدفة، إنما توفيق الله عز وجل سبق، فإذا بالعبارة حبلى بكثير من العلم. فعل الاقتحام سبق ذكر العقبة. يعني هذا كثيرا لعقول تربت على التفكير الجدلي المتحرك. ما كان همي الأول أن أرضي الجدلية، وهي وهم تافه من أوهام الفلاسفة، المثاليين منهم والماديين، لكن جاء التأمل الثاني فإذا بالعبارة ترفع تلك الحركة الجدلية التافهة من حيث كانت متناقضات الطبيعة يحتك بعضها ببعض، ويصطدم بعضها ببعض، ويسابق بعضها بعضا، إلى حيث تكون الطبيعة، الطبيعة الكونية والطبيعة الإنسانية، عقبة يجب على الإنسان أن يقتحمها ليعرف مولاه وخالقه، وليرضى عنه، وليسعده السعادة الأبدية. جدلية الطبقات الاجتماعية هل يمكن الروغان عنها؟ اقتحام العقبة إلى الله عز وجل ينقلنا من آفاق الثورة الطبقية والاستبداد الطبقي إلى إمكانية الأخوة الإنسانية.

اقتحام العقبة إذن تحرك إرادي تتعرض له العقبة فتمانعه ويغالبها حتى يتم الاقتحام. حركة الفرد المؤمن في سلوكه إلى الله عز وجل، وحركة الجماعة المجاهدة في حركتها التغييرية، وحركة الأمة في مسيرتها التاريخية.

الرحمة والحكمة

بعد العبارة المفتاح «اقتحام العقبة»، بعد عنصر الحركة والمغالبة الإرادية للواقع، لفظتان قرآنيتان تحمل كل منهما في أحشائها العوالم الذاتية في الإنسان.

وأستعمل الكلمتين استعمالا خاصا محدودا. فأقصد بالرحمة العلاقة القلبية للعبد بربه، وأقصد بالحكمة تصرف العقل، عقل المؤمن المرحوم، أثناء فهمه لشريعة الله عز وجل، وأثناء صياغتها صياغة قابلة للتطبيق، وأثناء السهر على تنفيذ أوامرها والامتناع والزجر عن نواهيها.

الرحمة ما جاء من الله تعالى للعبد هداية كبعث الرسل إليه، والرحمة تعلق القلب بتلك الهداية، والاستمساك بعروتها حتى تنور كيانه ويتمكن في محبة الله عز وجل، تلك المحبة التي تؤدي للعمل والجهاد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ﴾ (المائدة، 54).

أقصد بالحكمة «معرفة الدين والعمل به» كما فسر الكلمة الإمام مالك رحمه الله. قال ابن قتيبة: «الحكمة عند العرب العلم والعمل». والعلم والعمل آلتهما العقل. فإما عقل مصدر معرفته التجربة البشرية والتخمين الفلسفي وذاك عقل مشترك بين البشر. وإما عقل يتلقى عن القلب رحمة الإيمان وهداية الوحي، ثم ينصرف إلى تنفيذ أمر الله سبحانه وتعالى في الكون، لا غنى له عن التجربة والفحص، فذاك عقل الحكمة.

الرحمة قلبية، والحكمة عقلية راجعة في معرفة الأهداف والغاية إلى الوحي، آخذة بالتجربة التي تمكن الإنسان من ضبط حركة الكون والسيطرة على تفاعلاته ليتسنى له تطبيق الشرع.

النداء والاستجابة

«اقتحام العقبة» صيغة النداء الذي وجهه الله عز وجل للإنسان يهيب به أن يتحرك ويغلب العوارض ليعرف ربه ويطيعه وينال رضاه في الدار الآخرة.

يجيب المؤمن نداء ربه مرتاحا لما جاءت به الرسل، مصدقا للوحي منصاعا للأمر. يستجيب قلبا وقالبا، رحمة وحكمة، علما وعملا.

بمجموع هذه المفاهيم الثلاثة يتقابل النداء والاستجابة بتلبية العبد، فردا وأمة، نداء ربه بتحركه للتنفيذ على وعي تام بمصدر النداء وطبيعة العقبة. يتعرف الإسلام، ويتعرف الإيمان، ويتعرف الإحسان. ما الإسلام شيء بل حركة. ما الإيمان خفايا بل علاقة حية : بين العبد وربه رحمة، وبينه وبين الكون حكمة. ما الإحسان سبح في عالم الروح، بل تحسين مستمر متصاعد للعمل الصالح.

كل لفظة-مفهوم من قاموس الإديولوجيات تؤدي معارف: الماركسية معرفة الثورة، الثورة معرفة التغيير، الديمقراطية معرفة الحرية، العلمانية معرفة الديمقراطية، الاشتراكية معرفة توزيع الثروات. وتحت كل لفظة-مفهوم فلسفة أو فلسفة «علمية» في زعمها. الإسلام، حين نفهمه حركة لاقتحام العقبة، نداء واستجابة، رحمة وحكمة، يكون هو المعرفة الشاملة، والمحرك، والقوة، والعلم، والقدرة التنفيذية في حركة الانبعاث والحياة، وفي مسار العبد من دنياه التي فيها معاشه إلى آخرته التي فيها معاده.

الفصل الثاني

المنهاج

- كلمة منهاج
- الإديولوجية
- الناحية العملية
- وظيفة المنهاج
- مطالب المنهاج
- الإخلاص لله عز وجل أولا

كلمة منهاج

نستعمل الكلمة القرآنية «منهاج» حيث يستعمل غيرنا لفظة «منهج» أو «منهجية» لننظر أولا ماذا يعنون بلفظتهم المترجمة.

المنهج «Méthode» هو «الكيفية التي بها نقول شيئا أو نعلمه أو نفعله طبقا لمبادىء معينة وحسب ترتيب معين».

المنهج الفلسفي هو : «مجموعة قوانين وقواعد تمكن الفيلسوف من معرفة الحق».

المنهج العلمي التجريبي «طريقة تتلخص في ملاحظة الظواهر واتخاذ افتراضات من تلك الملاحظة، ثم التحقق من نتائج هذه الافتراضات في تجارب علمية».

حاجة العقل المعاصر إلى وضوح مبادئ العمل، وإلى ترتيب، وإلى معرفة «منهجية»، وإلى تجربة علمية، وإلى التأكد العلمي من صحة المقترحات وصلاحية نتائجها خصلة إيجابية تهيء المحل للحوار الناقد النزيه الحريص فقط على معرفة الحق. والإسلام تلك بغيته: أن يتفتح عقل المخاطب لاستيعاب ما عندك وعرضه على محك التجربة، لا يكابر في الحق.

الإيديولوجيات فلسفات، أي تخمينات بشرية لا تعترف بغير ذاتها مصدرا لأي معرفة. فالحق عندها ما تتضمنه مفاهيمها وقوانينها لا غير. فإذا بها أنظمة مغلقة على ذاتها. والحوار مع المؤمنين بها إنما هو في أحسن الحالات مجاملة من «آداب» المثقفين، أو ضرورة تكتيكية من ضرورات السياسيين.

نحن الإسلاميين نريد أن نُقنع غيرنا بما معنا من المعرفة، بما معنا من الحق، فنمد الجسور ما أمكننا. لكن لا تبلغ بنا المجاملة أن نفتح ذريعة من خلالها ينفلت منا الإخلاص لله عز وجل وحده لا شريك له. والكلمة السواء التي ندعو إليها

لا يمكن أن تكون كلمة الفلسفة، إنما هي كلمة العلم، علم الحق الذي يطلب التجربة، ويطلب اليقظة، ويطلب التأكد من النتائج.

لفظة «منهاج» القرآنية وردت في قوله عز وجل : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ (المائدة، 38). قال حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : «الشرعة القرآن، والمنهاج السنة». فالمنهاج إذن تطبيق للقرآن وتجسيد في حياة الفرد وتاريخ البشر لتعاليمه. المنهاج عبارة عن السنة، والسنة عمل تابع لعلم، عمل تاريخي مرتب في الزمان. فلا تنافي إذن بين التعريف العام للفظة «منهج» وبين تعريف المنهاج إذا ميزنا أن المنهج كيفية بشرية للقول والتعليم والفعل، بشرية محضة، بينما المنهاج قول وتعليم وفعل، بشري نعم، لكن بكيفية جاء بها الوحي وقاد مراحلها رسولٌ من عند الله عز وجل.

وفرق بين المنهاج وبين «المنهجية العلمية» من كون المنهجية العلمية موضوعها الكون ونتائج ملاحظتها وتجربتها وافتراضاتها قوانين تحكم الكون وحركته، بينما المنهاج موضوعه الإنسان، ومصير الإنسان في الدنيا والآخرة. والكون وأسراره ونواميسه تابع للإنسان، لا يستغني الإنسان عنه لأنه مجاله الحيوي ومصدر معاشه وعماد بقائه وقوته. ويجتمع المنهج العلمي والمنهاج النبوي في أن عملية ذاك تعطي نتائج كونية وفي أن هذا يعطي نتائج إنسانية.

ولما يسمى في عصرنا بـ«العلوم الإنسانية» مناهج كثيرة متكاثرة، من وضعية إلى بنيوية مرورا بطيف من الألوان الفلسفية تعطي لملاحظة الاثنولوجيين والأنثروبولوجيين والمؤرخين واللسانيين، إلى ما هنالك، قواعد نظرية يحاولون على أساسها معرفة تاريخ الإنسان، وتاريخ المجتمعات، وبناء المجتمعات، وعلاقات البشر فيما بينهم، والعادات والخصائص، والصفات المشتركة. هذه «العلوم» تملأ عندهم فراغا تركه الدين لما فصلوا الدين عن حياتهم، لكن أيا من تلك «العلوم» لا تبحث عن معنى وجود الإنسان ولا عن معنى زائد عن جسمانيته ونفسانيته الشهوانية التي تنشد اللذائذ، والغضبية التي تنشأ

عنها المنافسات والحروب، والنباتية التي تتوقف على ضروريات المعاش، والاجتماعية التي يحكمها تكوين الأسرة وتضامن القبيلة.

المنهاج علم متحرر من حيث هو علم موحى به، ومن حيث هو نداء من لدن رب العالمين، من كل ثقل أرضي اجتماعي أو إثني أو تاريخي أو اقتصادي. لكن المنهاج من حيث هو عمل، من حيث هو استجابة لداعي الله تعالى وتقدس، إنما هو عبور شاق، صعود مجهد، اقتحام لكل العقبات النفسية والاجتماعية والاقتصادية والجغرافية. المنهاج العلم وحي مجرد يمكن للعقل المجرد أن يتلقاه ويفهمه في تجريده فيبقى فكرا عاطلا. أما إذا تلقاه قلب المؤمن، وأصبح أمره ونهيه باعثا صارما، وانعقد الباعث إرادة عازمة، فالتنفيذ إنما يكون في عالم المادة، في عالم الأجسام والمصالح والدوافع والموانع والعادات والأعراف والعداوات والصداقات والحروب. والعقل عندئذ أداة تنفيذ لا مصدر تخمينات تعطي المعرفة وتؤسس العمل.

الإديولوجية

أو الإيديولوجيا. اللفظة أولا. وهي لفظة مركبة من كلمتين يونانيتين معناهما: «علم الأفكار». ويعرفون الإيديولوجية بأنها «مجموعة أفكار تكون مذهبا» هذا مدلولها العام. ولها استعمالات بقصد العيب كأن توصف الأفكار التضليلية بأنها إديولوجية، أو يوصف المذهب الذي يرمي إلى أهداف بعيدة المنال لا سبيل إليها بأنها إديولوجية، وهي عندئذ مرادفة لكلمة «يوتوبيا».

أما في «علم» السياسة فالإديولوجيا «مجموعة تصورات منسقة تعمد إليها طبقة اجتماعية فتتبناها لأنها تعكس طموحها، وتستعملها في صراعها مع طبقة أخرى لكي تفرض هيمنتها». وعندئذ يقال: هذه إديولولجية بورجوازية، أو علمانية، أو اشتراكية، أو قومية الخ.

الإديولجية إذن مذهب عقلاني تضمنه طبقة ما صيغها العقلية بهدف العمل السياسي والصراع الحيوي لصرع واقع لا تحبه وإحلال واقع آخر مرغوب فيه. فيتفق الإسلام مع العمل الإديولوجي السياسي بأن لنا هدفا معروفا وبأن الجهاد لتحقيقه صراع لازم بين جند الله ومن ينازعهم ويعترضهم. لكن الإسلام يختلف مع الإديولوجية من حيث أن مصدره الوحي، ثم تجيء الصيغ الشرعية العقلية تابعة خادمة. فالذين يصفون الإسلام بأنه إديولوجية إما يقصدون عيب الإسلام، وإما يقارنون بين المذاهب الفلسفية السياسية وبين الإسلام. يحسبون، بل يلمزون، أن الإسلام أفكار بشرية. ولأمر ما تجد فلاسفة العصر من بني جلدتنا يذكرون العقل ويركزون على العقل، وعلى تحرير العقل، ونقد العقل، إصرارا على أن لا مكان في القضية للوحي والغيب.

الإسلام يرسم أهدافا للأمة، أولها وأكثرها إلحاحا إقامة حكم إسلامي يوحد الأمة وينتزعها من قبضة أعدائها الداخليين والخارجيين. ويرى هؤلاء الأعداء قوة الإرادة الجهادية وبوادر التنفيذ الجهادي المتطلعة للمثل الأعلى الذي يرسمه

الإسلام فيدخلهم الفزع، ويرون الإسلام المنبعث خطرا جسيما يهدد وجودهم. لذلك يشحذون آلاتهم الإديولوجية ليدافعوا عن وجودهم.

إن هذه الأمة قد مضى عليها زمان تبحث عن ذاتها وما دلّاها إلا بغرور رواد الإديولوجية المستوردة، غرور كشفت عنه الأحداث منذ أن تصدرت الإديولوجية اللبرالية البرجوازية ثم الإديولوجية الاشتراكية القومية. هزائم متتالية جاءت الأمةَ على يد النخبات المغربة.

مجابهة مباشرة بين الإسلام وما يقترحه الإسلاميون وبين فلول الإديولوجيات المهزومة. والتحدي الأكبر ليس وجود هذه الفلول، ولا كثرة عددها، ولا مراكز النفوذ التي تحتلها، ولا تحزبها وتنظيمها وسندها المالي. ثوريتها لم تعد تثق بها الأمة، فوجودها محدود، وعددها ونفوذها وتحزبها وسندها وبيتها خراب. التحدي الأكبر أمام جند الله هو قدرة جند الله على تقديم رؤية واضحة للواقع الحاضر المتقلب المستعصي على التغيير، ثم قدرتهم على تقديم رؤية واضحة لأهداف الإسلام في الميادين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والحضارية وفي كل الميادين، ثم خاصة قدرتهم على انتزاع إمامة الأمة من الأيدي المتسلطة، ومن الأفكار الإديولوجية التي تبرر واقعا حاضرا أو تبشر بمستقبل يزيغ بالأمة عن طريقها إلى موعود الله لها بالخلافة في الأرض والسيادة والعزة.

الناحية العملية

قمة التحدي أن ينزرع الإسلام في الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي، أن ينتقل بالجهاد الدائب اليومي من دعوة إلى حياة، من مثال إلى واقع، من مطمح عال إلى إنجازات عينية. والهوة سحيقة بين مثال الإسلام وواقع الأمة، بين النموذج العزيز في ضمير الأمة وبين القزامة الذليلة المفروضة على الأمة.

إن في الميدان عروضا نظرية للإسلام يكون مجموعها حصيلة لا بأس بها. لكن الطريق الأضمن لتحصيل النتائج العملية لا يزال يحتاج لاجتهاد يلقي عليه الأضواء. لا تقل لي : «الإسلام هو كذا وكذا في العقيدة، وكذا وكذا في الاقتصاد إلخ»، لكن أخبرني عن المنهاج العملي لكي يكون تحزبنا لله عز وجل قوة فاعلة، أخبرني عن التربية العملية، عن وسائل وآداب وأفعال التغلغل في الأمة، عن المخطط الصالح للتطبيق، المتدرج، الكفيل بإيصال حزب الله حيث يكون من الوجود الكثيف والانتشار والتمركز والتمكن والدراية والخبرة والنظام بحيث يستطيع أن يفرض على الواقع وجوده وإرادته رغم المعارضين ورغم سندهم الداخلي والخارجي، وبحيث يتوج جهاده بإقامة دولة القرآن دولة وحدة الأمة. العالم تحكمه موازين القوى المادية الاقتصادية، تحكمه القوى العسكرية والسلاحية. لا مكان في العالم للمثاليات الحالمة، والأخلاقيات العزلاء، والكيانات الفقيرة. فأخبرني كيف يتحزب جند الله حتى يكونوا كتلة يحسب لها حسابها، كتلة تقاتل، يحدوها حب الموت في سبيل الله، كيف تنظم وسائلها المادية قبل الحكم وبعده، كيف تخترق الحواجز، كيف تقتحم العقبة. عمليا وبالتفصيل وبالتعلم الدؤوب من إصابة الغير وأخطائه، من نجاح الصف وفشله، من أحداث العالم اليومية.

ثم لا يكون جوابك عن هذه الأسئلة المنهاجية إلا خارجا عن الموضوع، مرفوضا بالميزان الإسلامي، إن لم يكن الإيمان هو الرائد والعقل تبعا منفذا، إن

لم تكن الروحانية والأخلاقية هي اللب، والقوة المادية وعاء وحصنا، إن لم يكن حب الله عز وجل والسعي في مرضاته هو الغاية، وما سواه أهدافا ثانوية ووسائل.

أن ننزرع في الواقع ونتغلغل ونصبح فعلا حاضرا في كل مكان وفي كل ميدان هو قمة التحدي، أن نكون فعلا مؤثرا ناجحا له نتائج.

إن عصرنا هذا المتقلب المتسارع لا تحتل فيه الإديولوجيا المحتضرة إلا مكان الحافز المثير المبرر للتصادم الواقعي لسياسة «الأمر الواقع» «realpolitik». هنالك مفهوم علمي كان منحصرا استعماله في ميادين الإنجازات التقنية. تحولت المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية إلى صورة الحركة التكنولوجية، وقوانينها التي تتلخص في الجدوى «efficacité». هذا المفهوم الذي ينبذ من ساحة الصراع كل ما لا يعطي نتيجة كما هو الشأن في التكنولوجيا، ينبذ كل ما ليس ذا مردودية، هو مفهوم أعجمي يترجمونه بلفظة «الإجرائية». هو مفهوم: «opérationnalisme».

يقولون في معنى البحث الإجرائي: «recherche opérationnelle» بأنه منهج تحليل علمي يتوجه للبحث عن أفضل طريقة لاتخاذ قرارات تعطي أفضل النتائج.

لفتة قصيرة لننبه أنفسنا وقراءنا الأعزاء بأننا إذ نضع بين أيدينا أفكار العصر ومناهجه إنما نفعل لنعرف طبيعة التصورات السائدة في العصر، وبالتالي لنعرف حركة العالم وحركة المعترضين والخصوم. ثم لنقتبس عناصر صالحة للدخول في الحكمة التي يؤتيها الله من يشاء.

ليست العبرة أن نلتمس أقصر طريق للحكم الإسلامي، ولا أن نلتمس أضمن الوسائل رأي العين، فكل طريق غير المنهاج النبوي، وهو السنة، وكل وسيلة لا يقبلها الشرع أمور مرفوضة.

العبرة أن نكتشف المنهاج النبوي في التربية، ذلك المنهاج الذي كان عملا باهر النتائج، خرج من مدرسته كبار الصحابة، عظماء الأمة، نخبة الإنسانية بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

العبرة أن نكتشف أسرار المنهاج النبوي الذي نتج عنه الجهاد الخالد الذي كانت ثمرته «المعجزة التاريخية» التي غيرت العالم أعمق تغيير وأوسع تغيير وأسرع تغيير.

العبرة أن نكتشف خاصية المنهاج النبوي التي بها تحول أفراد أنانيون، المحروم المستعبد منهم والسيد القاهر، المستضعفون منهم والملأ المستكبرون، جماعة موحدة قوية تحمل هَمَّ الجماعة، وتسعى لتحقيق أهداف الجماعة، ويموت أفراد لتبقى الجماعة وتعز.

قل لي كيف أسير، عمليا وعينيا ويوميا، على المنهاج النبوي، كيف تسير الجماعة حزب الله لتجتمع رحمة الإيمان وحكمة الإيمان فتكون الطاقة الدافعة والخبرة الإنجازية الكفيل اجتماعهما بتأهيلنا لاقتحام العقبة. اقتحام وعقبة. عمل إرادي وغلاب إنجازي.

قل لي كيف نتأهل، كيف نتدرب عمليا من الآن، لكي ندبر المعاملات الاقتصادية ونديرها، ونقود سياسة الدولة الإسلامية بحكمة، وننشر العدل، ونصنع البلاد، ونقسم الثروة، ونغير كل الأوضاع تغييرا يوافق ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وما فعله محمد صلى الله عليه وسلم.

إذا ذكرنا فيما يلي من الصفحات «الإجرائية» أو «الاهتمام الإجرائي» أو ما شابه فإنما نقصد الناحية العملية، نقصد الكيف التطبيقي. وما كان منهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحلاما وآمالا.

وظيفة المنهاج

المنهاج على وزن مفعال صيغة اسم الآلة كمفتاح، والصيغة تحتمل المصدرية أيضا كمعراج أو اسم المكان كمرصاد. ومعنى الكلمة لغة يفيد السلوك والوضوح. قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: «النهج الطريق الواضح، ونهج الأمر وأنهج وضح. ومنهج الطريق ومنهاجه».

هذه الجذور اللغوية. ومن تعريف ابن عباس رضي الله عنهما للمنهاج بأنه السنة يمكن أن نحدد وظيفة المنهاج بأنه وضوح وتوضيح يتبعهما سلوك على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهو آلة للعلم ومرشد للعمل، وهو في نفس الوقت مادة العلم وبرنامج العمل، لا ينفصل المنهاج آلة للعلم والتوضيح عن المضمون العلمي والعملي للمنهاج الطريق.

أصحاب الإديولوجيات يميزون بين المنهج «méthode» وبين المذهب «doctrine». فالجدلية مثلا منهج الماركسية، لكن المذهب الماركسي وتعاليمه المادية والطبقية ومطلبه في الحركة والتغيير والصراع، وتحليله التاريخي الاقتصادي الذي بني عليه المذهب كله، مادة زائدة على المنهج، وإن كان المنهج الجدلي المادي يتقمصها كما تتقمص النفس الجسد. أما المنهاج النبوي فهو كل لا يتجزأ، فالسنة النبوية طريق يسلك، النداء إلى الله عز وجل والاستجابة الإيمانية له كل لا يتجزأ في قلب المؤمن وعقله وحركته. فإذا كان من يطلع على السنة من أجل الاطلاع دون أن تظهر السنة سلوكا في حياته، ومن كان يقرأ القرآن ليطلع على ما هنالك دون أن يستجيب ويطبق ويأتمر فلا يمكن أن نقول إنه على صراط مستقيم، وبالتالي لا يمكن أن نقول إنه على المنهاج النبوي.

وظيفة المنهاج النبوي العلم والعمل مترابطين، النداء والاستجابة متلازمين، الرحمة والحكمة متعاضدتين، أمر إلهي وطاعة، خطة وتنفيذ معا، وإلا كان النفاق، نفاق الذين يقولون ما لا يفعلون.

أما بعد فإن المنهاج النبوي للمؤمن يكتسي من الأهمية ما تكتسيه الإديولوجية بالنسبة للمتحزب من غيرنا، ويؤدي نفس الوظيفة. وأهميته الإستراتيجية، أهمية التوضيح والتخطيط والتنسيق والتنفيذ، تجعل من العلم العملي، من سماع الأمر الإلهي بنيّة التنفيذ كما يقول سيد قطب رحمه الله، مسألة حياة أو موت.

هذه اللفظة «إستراتيجية» لفظة عسكرية في أصلها، أصبحت رائجة في لغة السياسة حين أصبح الصراع السياسي، طبقيا أو مصلحيا، والصمود له مسألة حياة أو موت كما هي الحال في الحروب. الإستراتيجية: «فن توجيه الجهود العسكرية وتنسيقها مع الجهود السياسية والاقتصادية والأخلاقية لقيادة حرب أو دفاع».

هذه وظيفة المنهاج: توجيه وتنسيق لجهود، لجهاد، في أهداف واضحة، ومسلك نموذجي. هناك كلمة «تكتيك» وهي أيضا لفظة عسكرية تعني: «الناحية التنفيذية الجزئية لإستراتيجية ما».

هذه المصطلحات أصبحت لغة عالمية، فكل متحدث عن حركة العصر وثقافته لا يستغني عن فهمها لأنه سيلتقي بها منتصراً أو مهزوماً: مسألة حياة أو موت.

مطالب المنهاج

يطلب المنهاج العلم لينحُوَ به المنحى العلمي الإجرائي، ويطلب الإنسان ليوضح له الطريق ويحفزه للعمل، ويطلب العمل ليبرمجه ويمرحله، ويطلب الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي في العالم وفي الأمة ليخطط مرامي العمل ومفاصله، ويطلب الأهداف الدنيوية والغاية الأخروية ليضعها على خط واحد لا تتناقض ولا تتنافر، ويطلب المجموع لينسق الجهود ويوجهها.

إننا نعيش عصراً انتصرت فيه التكنولوجيا العلمية الصناعية التي تعطي المسيطر عليها قوة لا يقهر ماديتها إلا معنوية لها سلاح مماثل أو مقارب. وبما أن الأمة في هذا العصر بمثابة الأعزل من القوة المادية التكنولوجية، فإن جمع الطاقة المعنوية للأمة وتوجيهها في المعركة وتحزيبها لله ورسوله ليكون استعمالها للحد الأدنى الذي معها من القوة المادية استعمالاً رشيداً موفقاً منصوراً مطلب أساسي للمنهاج. وعلى هذا الدّرب، درب الجهاد، تتجلى المطالب الجزئية التالية:

1- ضرورة أن نقدم للأمة مقترحا واضحا للعمل، مضبوط الخطة، واضح المعالم، يخاطب شعور الأمة ويوقظ وعيها. مقترحاً عماده: لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

2- ضرورة توعية الأمة بالمرحلة التاريخية التي تعيشها وأسباب ما بنا من ويلات. وصف الداء بتفصيل، بشجاعة، بصراحة، ليقبل المريض الدواء ويصبر على مرارته.

3- ضرورة الإقلاع عن نفاق الأمة كما يفعل حكام الجبر حين يبررون الواقع الحالي ويخدرون حس الأمة: «كل شيء بخير فناموا ولا تستيقظوا». وكما يفعل النافخون في النعرات القومية الثورية: «أمجاد يا عرب أمجاد». ضرورة أن نصارح أنفسنا بأنفسنا، وننتقد أنفسنا بأنفسنا.

4- ضرورة كشف المصالح العالمية الاستكبارية، والمصالح الطبقية بين ظهرانينا لتعرف الأمة من أعداؤها، وضرورة كشف مصالح الأمة ولِمَ ضاعت وكيف استرجاعها.

5- ضرورة لمِّ الطاقات الشعورية والعلمية للأمة وإعادة توجيهها بعد نزعها من قبضة التيارات الحزبية من غيرنا ومن قبضة الخمول الموروث.

6- إثارة القوة الغضبية للأمة على الظلم والظالمين، لكن التحكم في تلك القوة وتهذيبها وتربيتها حتى تكون غضبا لله عز وجل صالحة للبناء لا للهدم الفوضوي.

7- توعية الأمة بذاتها الضائعة، بانتمائها لله عز وجل ولرسوله، بوحدتها المسلوبة، بواجبها في التحزب لله ولرسوله.

8- إيقاظ الإيمان الراقد، وتحريك الغيرة الراكدة، لتعود تعاليم الدين أمرا مطاعا معمولا به، ولتعود السنة النبوية أخلاقا سائدة وعملا يوميا.

9- إنقاذ الأمة من كابوس الحتميات التي أنهكت تاريخنا وجعلتنا كمّاً مهملا مفعولا به غير فاعل. إنقاذ الأمة من الجبرية عقيدة وعملا، وتوعيتها بأن لها إرادة وبأن هذه الإرادة الحرة، المجعولة المخلوقة، لكن الحرة في اعتبار التكليف الشرعي، يمكن أن تصنع تاريخا جديدا عزيزا.

10- إنقاذ الأمة من دعوات «الحتمية التاريخية» المادية وذهنية الانصياع للقوة الغالبة، ذهنية التابع الذيل.

11- جذب الأمة بالحكمة والإنجازات العملية، والمشاركة في هموم الخبز والعمل والصحة والأمن، لتتجمع الأمة حول قواتها المجندة، لتكون الأمة نصيراً لحزب الله، درعا له، حصنا له، قوة به وله. وإن انتزاع إمامة الأمة من يد غيرنا لمطلب حاسم.

إن من أقوى خصومنا، لا يزالون أقوياء في بلادنا المتخلفة، الماركسية المبسطة التي تقسم المجتمع إلى طبقتين، وتحيط هذا التقسيم بمقالات في

متناول السامع، لا سيما إن كان مظلوما محروما. فلا يلبث الشعار ضد الظالمين أن يثير الغضب الطبقي، ولا يلبث الشاب الذي أسيء تعليمه وأسيئت معاملته أن يتجند. الوعي الطبقي يطرد كل وعي غيره، الانتماء للطليعة يمحو كل انتماء غيره، الإيمان بالإديولوجية لا يترك مجالا للإيمان بالله ورسوله.

تلك الإديولوجية تصنع الوعي الطبقي المتميز كما يصنع الحكم الظالم اللاوعي الخانع. فأيهما أسبق في اهتمامنا أن نواجهه: صانعو اللاوعي سدنة الظلم أم صانعو الوعي الملحد، لكن القوي جدا لموقفه الواضح ضد العدو الطبقي؟

هنالك أيضا الدعوات الأخرى من قومية وعلمانية، من إباحية وإلحادية، من تنصيرية وانتهازية. وجود كل ذلك يبرز أهمية المنهاج الاستراتيجية في صراع هدفُه الاستيلاء على عقول الأمة ونفوسها وطاقاتها وسندها.

12 – بإجمال، فإن إيقاظ طاقات الأمة وتوجيهها وجهة تخدم الإسلام مطلب أساسي. تبعثرت طاقات الأمة إما بانصراف لمتعة ولعب، وإما بانصراف لكدّ وبؤس، وإما بتبرير قعودنا عندما نوسع الواقع المكروه لعنا على الموائد وفي الخلوات. شباب طاقاته مهدرة، طبقات لها باع أو ذراع أو أُفحوصة قطاة في الدولة فهي تنهب وتدمر، سواد الأمة في فقر وبؤس يعاني الأمَرّين.

مطلب المنهاج تجميع هذه الطاقات بردها إلى أصلها الأصيل، إلى جذور الأمة الدينية. هل يمكن هذا دون حرب طبقية؟ هل تتحزب لله عز وجل طائفة دون طائفة وطبقة دون طبقة؟ هل تكون إستراتيجيتنا التأثير على الحكم أو أخذ مقاليد الحكم؟ إصلاحية أم ثورية؟ محافظة أو تقدمية؟ معتدلة أو جذرية؟ يمينا أو يسارا؟ أية أحلاف وأية قبلة؟

الإخلاص لله عز وجل أولا

كتب سيد قطب رحمه الله يقول: «ولقد يخيل لبعض المخلصين، ممن لا يتدبرون طبيعة هذا الدين، وطبيعة منهجه الرباني القويم، المؤسس على حكمة العليم الحكيم، وعلمه بطبائع البشر وحاجات الحياة... نقول: لقد يخيل لبعض هؤلاء أن عرض أسس النظام الإسلامي بل التشريعات الإسلامية كذلك على الناس مما ييسر لهم طريق الدعوة، ويحبب الناس في هذا الدين. وهذا وهْم تنشئه العجلة، وهْم كالذي كان يمكن أن يقترحه المقترحون: أن تقوم دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أولها تحت راية قومية، أو راية اجتماعية، أو راية أخلاقية، تيسيرا للطريق.

«إن القلوب يجب أن تخلص أولا لله، وتعلن عبوديتها له وحده، بقبول شرعه وحده، ورفض كل شرع آخر غيره... من ناحية المبدإ... قبل أن تخاطب بأي تفصيل عن ذلك الشرع يرغبها فيه».[1]

ويرجع إلى الموضوع رحمه الله مرات ليؤكد على مخاوفه من أن تصبح الدعوة إلى الله دعوة إلى نظام سياسي واقتصادي يقارَن بالأنظمة الأخرى على صعيد واحد، فإذا بنا في حضيض الإسلام السياسي، وإذا بلب الدعوة يفوت، وإذا بنا ناس من الناس نتشبت بأفكار منقطعة عن الإيمان والخطر حقيقي.

لكن في أعقاب كلام شهيدنا تقبله الله ما يرد على صدوره، فهو يعرف أن قبول شرع الله عز وجل شرط أساسي في صحة عبودية العبد. فكيف يقبل هذا الشرع إن لم يعرف تفاصيله؟ ورحم الله عبد القادر عودة والمودودي فقد كان ما فعلاه، ونِعِمَّا فعلا، هو عكس ما دعا إليه كاتبنا رحمه الله. رحم الله الجميع. وخطر الانزلاق في الإسلام السياسي جسيم. فمن هنا ضرورة أن يكون عرض المنهاج

(1) معالم في الطريق، ص 48، طبعة الدار البيضاء، 1966.

متماسكا تلتحم فيه العقيدة والشريعة، الرحمة بالحكمة، السلوك إلى الله تعالى بالسلوك في الناس، الأخلاق بالنشاط في الأرض، ويكون النداء حاضرا تقابله الاستجابة الإيمانية.

إن سيدا كان يكتب في وقت ظهر فيه الإخوان المسلمون أعظم الظهور، فهو ينطق من مكانة انتصار وانتشار وعزة. ثم هو كان رجل الفكر المغرب الذي يكتشف رحمة الإيمان، فهو في نجواه وعلانيته، في كلامه وكتابته، يتحدث عن أثمن شيء في الوجود، عن عثور العبد على طريق ربه بعد طول ضلال. ولا يحب حديثا غيره. يقول رحمه الله: «إن الذي يكتب هذا الكلام إنسان عاش يقرأ أربعين سنة كاملة. كان عمله الأول فيها هو القراءة والاطلاع في معظم حقول المعرفة الإنسانية. ما هو من تخصصه وما هو من هواياته... ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره فإذا هو يجد كل ما قرأه ضئيلا ضئيلا إلى جانب ذلك الرصيد الضخم (...) فإنما عرف الجاهلية على حقيقتها وعلى انحرافها، وعلى ضآلتها، وعلى قزامتها وعلى جعجعتها وعلى انتفاشها»[2]. من يحدث الظمآن عن غير ما يروي غلته مباشرة فقد أبعد وأوحش، رحم الله ذلك العَلَم من الرجال.

(2) معالم في الطريق، ص 172.

الفصل الثالث

اقتحام العقبة إلى الله عز وجل

- السلوك
- النداء والاستجابة
- فك رقبة
- أية حرية
- المصير
- الشيطان والإنسان والسلطان
- الاستسلام
- صوى الإسلام وشعب الايمان
- الخصال العشر

السلوك

هذا الهم الذي ألح على فقيدنا العزيز سيد قطب رحمه الله يساور كل من مارس الدعوة وتعلم بالتجربة صعوبة الجمع بين نشاط القلب في إقباله على مولاه وبين نشاط العقل والجوارح يثيرها صخب الواقع ويصرفها عن ذكر الله وعن الصلاة. كان سيد قطب رحمه الله كثير التذكير بـ«الفصام النكد» انفصام الدين عن الحياة الدنيوية، ذلك الانفصام الذي عرف تاريخه في أوروبا، وكان بتاريخ ذلك بصيراً. وتحبذ العلمانية ودعاتها من بني جلدتنا ممن عاصرهم كاتبنا ذلك الانفصام يدعونه تقدما، ويسعون لفصل الدين في زاوية ساكنة من زوايا الإهمال. كل ذلك كان حاضرا في الذهن عندما كان يرفع شهيدنا، تقبله الله، صوته عاليا ليميز الجاهلية عن الإسلام، ليميز حياة الظلمة المادية عن حياة الإيمان.

همنا في هذا الكتاب يوازي ذلك الاهتمام، ويواكب نداءات تتعالى من صفوف حزب الله تفتقد التربية الروحية وتدعو إلى استكمال الإيمان، وتخوف من الأزمة الروحية التي تهدد الصفوف، صفوفا يتنازع فيها الهم والعزائم داعي القلب ودواعي الفكر والحركة، وتتنازع تلك الدواعي وقت المؤمنين وبرامجهم وأسبقياتهم.

لذا لا نفتأ نذكر بأن سلوك العبد إلى الله عز وجل، وما يطلبه السلوك الإيماني الإحساني من تربية، من ذكر، من ترقيق القلب بالمداومة على الذكر، هو معنى المنهاج واتجاهه وغايته.

ونؤكد على أهمية طلب العبد في صفوفنا للرقي من إسلام لإيمان لإحسان. نعلمه ذلك الطلب، ونساعده عليه، ونماشي عليه خطاه، ونخصص لإحيائه في قلبه وقتا وبرامج ونشاطات، بل نجعل ذلك الطلب عبير جو العمل، وريحانة رياضه، وحادي سيره، ونجي خلواته، وشعار جلواته.

المنهاج النبوي أجملناه في هذه العبارة «اقتحام العقبة إلى الله عز وجل»، فأول ما نفهمه من العبارة تحرك سالك إلى مسلوك إليه، صعدا وارتقاء. تقرب العبد إلى ربه. فكل ما يصرف العبد عن هذه الوجهة، أو يعرقل هذه الحركة، أو ينسيها أثناء السير، أو يذيبها في الانتشار الفكري والشغل الجماعي، خطر يهدد عملنا بالسطحية، ثم بالغفلة، ثم بالانحراف. نسأل الله السلامة والعافية، عافية المجاهدين في سبيله.

بديهية من البدائه التي تُعلم من الدين بالضرورة ومع ذلك لا نكاد نجد لها مدخلا في علم المسلمين، ولا في اهتمامهم وطموحهم، بديهية كون الأمر إسلاما فإيمانا فإحسانا. حديث جبريل المشهور الذي رواه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حديث عجيب. عجيب أن يتوقف البيان النبوي لمراتب الإسلام والإيمان والإحسان على تشخص الملَك رجلا يراه الصحابة رضي الله عنهم، يسأل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في ذلك المجلس الكريم فيعلم الناس دينهم.

ثم ينسى المسلمون دينهم فتغيب عن عامتهم الرغبة في الترقي، الرغبة في المسارعة إلى الخيرات، الرغبة في المسابقة. ومع ذلك نقرأ في كتاب الله عز وجل: «سابقوا» ونقرأ ذكر السابقين وفوزهم، وذكر المقربين وميزتهم عند الله عز وجل في مقعد الصدق.

النداء والاستجابة

في الفصل الأول من هذا الباب، في حديثنا عن المفاهيم الأساسية للمنهاج، كتبنا بحمد الله فقرة تحت هذا العنوان الذي نكرره. لا نمل من التوكيد على أن الإسلام مصدر فعل «أسلم»، فالإسلام فعل من العبد، علاقة بينه وبين ربه، استجابة لنداء، حركة مستمرة. ويزداد إقبال العبد على ربه فيتميز فعله، وتزداد علاقته بربه متانة، وتكتسي حياته كلها معاني الاستجابة لداعي الله، وتنضبط حركته بأمر الله سبحانه لمولاه فيحسن فعله، وتكون كل علاقة له بالكون فرعا عن علاقته بربه، وتكتمل استجابته له فإذا هو حي القلب، ويكون التقرب إلى الله عز وجل دافعه الدائم، فإذا هو على معراج الإحسان.

يتفاوت عباد الله من فرد لفرد في الاستعداد للترفي وفي خصال القلب والعقل، فيتفاوت سلوكهم. أما حزب الله المخاطب بالقرآن في قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا» افعلوا ولا تفعلوا فالمفروض أنه جماعة يتمثل فيها الإيمان الذي هو مناط التكليف بحمل الأمانة الجماعية. فلا ينتظر من جماعة «مؤهلها» لا يتجاوز مرتبة الإسلام أن تقدر على حمل تلك الأمانة. وفي طريق الصعود على معراج الإيمان والإحسان صعوبات، ليس ذلك الطريق سهلا. لا ولا يخاطب به إلا كل شديد شجاع سامي الهمة، وكل جماعة شديدة الشكيمة ماضية العزم.

ذكر الله سبحانه وتعالى الإنسان في سورة البلد المكية، وذكر تعبه في الدنيا مادام بعيدا عن ربه، وذكر نعمه عليه وما أودعه من طاقات، وما بعث إليه من رسل يهدونه، وما فطره عليه من استعداد. ثم خاطبه مخبرا محرضا: «فلا اقتحم العقبة !» لا هنا للنفي والاستنكار، فيكون المعنى: مع كل تلك النعم، ومع الهداية التي تخيره بين نجدي السعادة والشقاء لم يقتحم العقبة المؤدية لسعادته. أو تكون لا للعرض والتحريض فيكون المعنى: هلا اقتحم العقبة ؟

وبكلا المعنين فهو نداء مؤكد من الله عز وجل للإنسان أن يسلك إلى ربه السبيل. إلى ماذا يشير لفظ النداء؟... ماذا تحمل العبارة «اقتحم العقبة» من

مواصفات في «الذات» وفي «الموضوع» الذي هو الطريق ؟ قال الراغب الأصفهاني رحمه الله في كتاب «مفردات ألفاظ القرآن»: «الاقتحام توسط شدة مخيفة» وقال: «العقبة طريق وعر في الجبل».

فها هي الألفاظ تعطينا دلالة على أن الاقتحام دخول شجاع في شدائد، على أنه منابذة للخوف، بل هجوم على ما يخيف الجبناء، وعلى أن الطريق صاعدة لكن في وعورة. بعبارة أخرى فإن العبارة تصور لنا الخصال النفسية القلبية العقلية عند المدعوين للاقتحام كما تصور طبيعة المسلك الموضوعية. وهي قبل كل شيء دعوة صادرة من الله عز وجل، فالاستجابة لا تتخذ معناها من خصال المقتحم ولا من وعورة المسلك، لكن من كونها تلبية لنداء الحق.

فك رقبة

ذلك ما تعطيه الألفاظ، وهو جدير بكل اعتبار لأن القرآن الكريم أنزل بلسان عربي مبين. أما ما يعطيه النص من معاني الاقتحام ومعاني العقبة فهو في سياق الآيات: قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَة فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾ (البلد، 4 ـ 20).

نجد أن النجدين الذين هدى الله تعالى إليهما الإنسان عقبتان : إحداهما تؤديه بعد الكدح والكبد والتعب في دنياه إلى الشقاء الأبدي في الدار الآخرة. والأخرى، وهي التي عظم الله شأنها وشوق إلى معرفتها في قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَة﴾ هي التي يقتحمها المؤمن اقتحاما، فينال بعمله الصالح ذاك سعادة الدارين.

نداء خالد من الله عز وجل للإنسان، والإنسان مخير ذو إرادة. حر في أن يسارع لرضى ربه ويتجشم في سبيله المشاق أو يختار النجد الآخر. فأية حرية تفتح له الطريق؟ وأي رق يعوقه عن الاقتحام؟ ما هي العقبة؟ وما قوائمها؟ أخبرنا الله العليم الحكيم بثلاثة أبعاد هي مجاري العقبة وآفاتها:

1– الرق الذي يستعبد الإنسان فإذا هو رهين بإرادة غير إرادته.

2– العوز الذي يقعد بالمسكين واليتيم، تمنعهم المسغبة والاهتمام بالقوت عن كل خير.

3– الانفراد عن جماعة المؤمنين الذين يتأتى السفر والاقتحام في كنفهم.

للفقيه الذي يبحث عن الأحكام العينية الجزئية أن يفسر فك الرقبة وإطعام المسكين واليتيم والكينونة مع الذين آمنوا في سياق تفصيل الأحكام الفقهية.

لكن أي شيء يمنعنا أن نفهم عن الله عز وجل ما وراء الأحكام التفصيلية، ما يجمع تلك الأحكام وما يربطها وما يكون منها معرفة شمولية للإنسان وسلوكه عبر العوائق والحواجز التي تعترض صعوده في معارج الإيمان ؟ فك الرقبة تحرير الإنسان من العبودية لغير الله عز وجل. إطعام اليتيم والمسكين، تحرير لطاقاته لينتج ما به يستطيع أن يطعم المعوزين ابتداء من إطعام نفسه. الكينونة مع الذين آمنوا تحرير للإنسان المؤمن الفرد من العزلة والخمول والانفراد، وإدماج له في الجماعة ليتحزب لله عز وجل. ثلاث مجالات: المجال النفسي، والمجال الاقتصادي، والمجال السياسي. ليس ما نحن بصدده تأويلا لكتاب الله عز وجل، فلا نقاش في أن فك الرقبة المؤمنة في الكفارات وغيرها قربة، والصدقة على اليتيم والمسكين عمل صالح، وصحبة المؤمنين ومشاركتهم في الحق والصبر انضمام للجماعة مأمور به.

الأحكام التفصيلية باقية على وجهها، أما الفقه الأوسع والتدبر المنهاجي فيبسط أمامنا الفهم الشمولي لأهمية التحريض الإلهي على الاقتحام، ولخطورة العقبة التي بينتها الآيات الكريمة. تحريض ملح وخطورة بالغة بالنسبة للإنسان ومصيره لا يتناسبان مع مجرد تحرير رقبة وإطعام جائع وانضمام مؤمن، ولا ينتهيان فيها، ولا يتحقق الاقتحام بها مادامت أفعالا فردية متناثرة، مادامت لم تدخل في نظام محكم يتحرر فيه الإنسان وتتحرر فيه الأمة من كل عبودية لغير الله، من العبودية للناس، ومن العجز أمام الطبيعة، ومن الانفراد وغياب الجماعة. وما هو إلا نظام الإسلام.

للفقيه أن يدرج فك الرقاب في باب الكفارات، ويدرج إطعام اليتيم والمسكين في باب الصدقات، ويدرج انضمام المؤمن للجماعة في باب الوعظ والرقائق. أما من يتخذ القرآن إماما ليبصر المنهاج الكلي فلا يسعه ما يسع الفقيه، لا يسعه أن يقف عند ذلك التصنيف. وإلا ضاعت من أمامه معاني النداء والاستجابة والعقبة والاقتحام. ومع هذا فلا بد من الوقوف وقفة مع الرق في الإسلام، وفك الرقاب، رقاب المملوكين العبيد، ورقاب المظلومين، خاصة أكثرهم مظلومية: المرأة.

هذه نقطة يثيرها أعداء الإسلام في وجوهنا، فينبري أهل العلم للرد على تهمهم وتفنيدها بما يشبه الاعتراف بأن الرِّق في الإسلام إنما كان مرحلة وأن المرأة كانت في الجاهلية أسوأ حالا، وأن المرأة المعاصرة لا تزال لم تنل بعض ما أوتيته المرأة في الإسلام. وفي كل ذلك ما يشبه التبرير لما جنته أيدي الناس على الإسلام بسوء استعمال قانون الإسلام. وفي كل ذلك ما يوشك أن يضعنا في فك الفلسفة التاريخية، وقوانين التطور التاريخي المادية، ونسبية أحكام الإسلام وتعاليمه، وتاريخيتهما. ولئن كانت لبعض علماء المسلمين دهشات أمام تألق الفكر المادي وحضارته حتى كان بعضهم، عفا الله عنهم، يؤول الغيب الذي أمرنا أن نؤمن به تأويلاً مادّيـًا، فإننا اليوم والحمد لله آن أن نرفع رؤوسنا اعتزازاً بخلود الرسالة وإطلاق أحكامها. فإذا اصطنعنا لغة يفهمها العقل العام فإن مضمون الرسالة لا مساومة فيه.

إن أيدي الناس طوال هذه القرون من تاريخ الإسلام جنت على الإسلام جنايات عظمى ليس أقلها جنايتهم على العبيد والمرأة. آلله أمر أن يكون بين ظهراني المسلمين أسواق للنخاسة، أم أن المترفين في المجتمعات الإسلامية استغلوا وجود أحكام شرعية فوجهوها واستغلوها ليتأتى لهم تزويد القصور بحسان الجواري وبارعات المغنيات وتزويد المزارع باليد العاملة المجانية، وتزويد المدينة والبيت بالخدم والحشم؟ آلله أمر أن تُقهر المرأة وتحرم من التعليم، وتمنع من المساهمة من مواقعها الشرعية في السلم والحرب والإنتاج كما كانت تفعل على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، أم أن الرجل طغى على حقوقها فاتخذها بضاعة ساكنة؟

إن نظام الإسلام خالد، وليخسأ من في قلوبهم مرض، الذين يُخسرون الميزان!

من أنظمة الإسلام الخالدة نظام أسرى الحرب. العبد والأمة، الفتى والفتاة، تعابير قرآنية تُعرف الأسير والأسيرة تارة باسم العبودية المذلة وتارة باسم الفتوة التي ترفع من شأنهما. وفي الحديث النبوي سمي الفتى والفتاة من الأسرى في أيدينا إخوانا وخولا، وأمرنا الشرع بأن نطعمهم مما نطعم ونكسوهم مما نكتسي ونرفق بهم. عبدٌ وأمةٌ أذلهما كُفرهما وحربهما للمسلمين، ثم يدخلان

تحت كنف أسرة ليكتشفا فيها رفق الإسلام وإحسان المسلمين، فتستيقظ فيهما الفتوة والشهامة، فيرجى عندئذ أن تكون معاملتنا الأخوية لهما مدعاة أن يدخلا في الأخوة الدينية، وعندئذ فقد أصبحا أكفاء ليحررا فيرجعا إلى أهليهما دعاة للإسلام شاهدين على ما عاشاه من أخوة الإسلام. ومن أجل هذه الوظيفة الدعوية، من أجل نشر الإسلام في ربوع الأرض كان الأسر وكانت التربية وكان التعليم ويكون التحرير. ما ذكرت الرقاب في كتاب ولا سنة إلا في سياق التحرير. تحرير الرقبة المؤمنة عملية دعوية يحبها الله ويثيب عليها. ولم يتركها للتطوع، بل ربطها بالكفارات لتكون الكفارات باباً للحرية مفتوحا على الدوام. ولا يجزئ تحرير الرقبة إلا إذا كانت مؤمنة. فحين كان المسلمون يمارسون دينهم على أنه دين هداية كانت العناية بتعليم الفتى والفتاة وتحبيب الإسلام إليهما هدفا حاضرا ملازما. حتى إذا تحولت الأحوال وأصبح اتجاه من يفهمون أن الإسلام دين جباية استحال الفتيان والفتيات إلى رقيق، وحميت أسواق النخاسة. ولا إنصاف عند من يُحمّل الإسلام أخطاء بنيه التاريخية.

أية حرية

نرجع بحول الله إلى السياق المنهاجي. إننا في عصر نشيده الذي يصم الأسماع هو نشيد الحرية. فلا بد أن نقف لنتسائل عن نوع الحرية التي نطلبها لرقابنا المملوكة فُرادى وأمّة. حرية اليمين اللبرالي أم حرية اليسار؟ الحرية السياسية الرأسمالية أم الحرية الاقتصادية في ظل النظام الاشتراكي؟ التحرر ممن؟ التحرر من ماذا؟ التحرر إلى ماذا؟

إن الحرية التي تُرفع شعاراً مطلقاً كثيرا ما تخفي نيات الاستعباد. لا بد للمنهاج أن يحدد الشروط الإنسانية والمادية، الاجتماعية والاقتصادية، السياسية والتكنولوجية، التي تمكننا من التحرر، تمكننا من اكتساب حرية تتناسب مع النداء والاستجابة الإيمانية، تحقق أهداف الشرع في الدنيا عزةً للأمة كما تحقق غاية المؤمن في الآخرة: السعادة الأبدية عند الله عز وجل.

بعد أن ذكر الله عز وجل في سورة البلد الثلاثة الشروط التي يقتضي الوفاء بها اقتحام العقبة قال: ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ (البلد، 18). ففك الرقاب وإطعام الطعام، والكينونة مع المؤمنين أفعال مُرضية، أعمال صالحة تؤدي إلى الحشر في أصحاب الميمنة. يعني هذا أن مجال الحرية ليس الدنيا الفانية وانتهى كل شيء. الحرية الفردية، والإنتاج والتوزيع الاقتصاديان، والتحزب السياسي مع المؤمنين، أفعال لا تُقصد لذاتها، ولا لهدف حضاري أرضي. إنما تكسب معناها وشرفها لما تؤدي إليه من مصير بعد الموت.

المصير

ففي امتداد الدنيا إلى الآخرة تكتسب حياة المؤمن وأعماله معناها. مصيره بعد الموت يحدد له السلوك الذي ينبغي له في الدنيا: فإما كافر أو منافق لا يرجو الله ولا اليوم الآخر، فعندئذ يكون المعاش الرخي ويكون انتهاب الملذات وإرضاء الغرور الشخصي والظهور في المجتمع هي المطالب، وتكون الحرية في إحرازها هي الحرية. وإما مؤمن بالله واليوم الآخر، راج لعفو ربه منتظر كرمه، وعندئذ فإنْ طلب المعاشَ الرخي فإنما يطلبه لتكون دنياه مطية لآخرته، وإن تمتع باللذائذ والنعم فإنما يفعل في حدود الشرع، وإن كان له طموح صرفه ليسارع في الخيرات ويسابق إلى الحسنى، وإن ظهر في المجتمع فإنما يظهر بالعمل الصالح لا استكبارا في الأرض.

والمؤمن الكامل الإيمان هو ذاك الذي لا يهرب من الميدان مخافة التلوث، لا يدع العالم وصراعاته ليتفرغ للتقوى والعبادة، لا يفصل مصيره في الآخرة عن مصير أمته التاريخي. وها هنا مظهر من أهم مظاهر تفتت المجتمع الإسلامي ووهنه: الانفصال في وعي المؤمن بين مصيره الشخصي في الآخرة وبين مصير أمته في التاريخ. والربط بين المصيرين في وعي المؤمن وعمله من أهم أهداف التربية إن لم يكن أهمها. نرجو إن شاء الله أن نرجع إلى الموضوع كثيراً.

مؤمن يتسربل بأنانيته الإيمانية ويبخل بإيمانه أن تمسه نار الفتنة، ويخشى على أذياله الطاهرة أن توسخها عفونات الجاهلية، وعلى صلاح عمله أن يفسد إن خالط المجتمع الفاسد، يهرب وينعزل في صومعة التصوف أو ركن العبادة بالمسجد، يرى أن حريته مصونة إن غاب عما فيه الناس. ذاك يفوته فك الرقبة لأنه لا يسعى في تحرير الإنسان، ويفوته الإطعام بالمعنى القوي الكامل لأنه لا يشارك في الإنتاج، ويفوته التحزب لله عز وجل فيفوته الجهاد، وقد فضل الله المجاهدين على القاعدين درجات.

تجيء الأسئلة التي طرحناها في الفقرة الماضية فتصطف هنا لتأخذ معناها الإسلامي. أية حرية؟ ما لونها؟ ما وجهتها؟ ما مجالها؟

ولعلنا نزيد معنى الحرية في الإسلام توضيحا إن تأملنا العقبة من جانب العوائق والموانع خارج الإنسان وفي باطنه، بعد أن تأملناها من جانب الحوافز المصيرية والدوافع.

الشيطان والإنسان والسلطان

في طريق ابن آدم يتربص شيطان الجن الذي أبى السجود لآدم وحلف ليغوين بني آدم أجمعين إلا عباد الله المخلصين. خلق أقره الله عز وجل حين خاطب إبليس قائلا:﴿اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ﴾ (االإسراء، 64). أعلمنا الله عز وجل أن الشيطان عدو لنا، وعلمنا كيف نتخذه عدوا، وكيف نستعيذ بالله منه.

الشيطان له مأوى في داخل كياننا، له عش، له حلفاء. تخبث النفس حين لا تتزكى ولا تتطهر، فيجد الشيطان فيها ركنا ممهدا، أو تنجس بالكفر والنفاق فكلها ظلام وكلها مملكة إبليس، ويحالف الشيطان نوازع الشهوانية والغضبية العدوانية الأنانية في الإنسان، ويستغلها ليمارس أشغاله.

وهكذا يفتتن الإنسان من داخله بنفسه ونوازعها، وبالشيطان ونزغاته، يلتئم الصوتان ويتمازجان. ويفتتن الإنسان من خارجه، يفتنه الإنسان من بني جنسه، ويفتنه السلطان كما سنذكر بعد قليل إن شاء الله تعالى. وتفتنه الطبيعة باستعصائها على جهوده، وتلهيه معاناتها عما هو بصدده.

المجموع يكون الفتنة بمفهومها القرآني، البلاء كما جاء في بعض الآيات. الحياة الدنيا كلها ممر لفتنة الإنسان واختباره، أي لامتحانه. قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (الملك، 2).

نضع هذه النبذة القصيرة عن الفتنة بمفهومها القرآني جوابا عن السؤال الذي يطرحه العقل البشري: فيم كل هذا العناء؟ ولماذا الخلاف في الأرض، والحرمان والجوع؟ ولنا رجوع إن شاء الله تعالى، ولنتحدث عن الفتن بصيغة الجمع بالمفهوم النبوي.

بعد الشيطان فتنة الإنسان بأخيه الإنسان، صدام أنانيات، صدام عادات، صدام ذهنيات، تنافس على الرزق، خصام على المصالح.

ذلك النداء الإلهي الذي يدعوك لاقتحام العقبة قدم لك صورة كاملة عن العقبة كما قدم لك واجبك تجاه الامتناع الاجتماعي، وهو مقاومة كل مايستعبد الرقبة من تسلط مباشر أو مضايقة ظالمة في الرزق، وقدم لك صورة واضحة ضمنيا عن الامتناع السياسي حين نصح لك بالانضمام للجماعة والتحزب لله عز وجل معها لتتعاون مع المؤمنين على ممارسة الصبر وممارسة المرحمة. الصبر لمقاومة التسلط الخارجي والمرحمة لتكون لحمة التراحم والتآخي بين أفراد الجماعة المؤمنة آصرة قوة وضمان حرية لا يستطيع الفرد وحده أن ينتزعها من السلطان.

لا حرية للإنسان إلا داخل تضامن اجتماعي يقيه طغيان الفئة المناهضة، أو طغيان الدولة.

النداء الإلهي للاقتحام لن يصل إلى سمعك بتاتا، أو لن تسمعه بالوضوح الكافي، إن كنت غارقا في الفتنة. ثم لن تستطيع تلبيته إن كانت الفتنة جاثمة في نفسك، في حياتك اليومية، في وضعيتك الاجتماعية السياسية الاقتصادية. ووجود الفتنة المتعددة الوجوه، فتنة الشيطان والإنسان والسلطان عامل إحياء، فلولا الفتنة لكانت الحياة الدنيا ركودا، ولما كان أي معنى ولا أية ضرورة للجهاد، ولا للعمل أي حق في أن يوصف بالصلاح، ولا للجزاء في الدار الآخرة مكان. لو كانت الدنيا جنة، والناس ملائكة، لم يكن معنى ولا وجود ولا داع للحرية واقتحام العقبة إليها، إذ لا وجود عندئذ لعقبة أساسا.

الاستسلام

تقطن أسباب الاستسلام والرقود الخامل والتنازل عن الحرية في الجذور النفسية العقلية الاجتماعية السياسية التالية:

1- **الأنانيات:** كل فرد شغلته نفسه وشهواته، أو أمواله، أو جاهه الاجتماعي، أو وظيفته يريد الرقي فيها، إلى ما شابه.

2- **الذهنيات:** وعي للواقع مجانب، خرافية، جبرية، جهل، تضليل إديلوجي.

3- **العادات:** التصاق بالمألوف الساكن، بالترف، رضى بالواقع، خنوع موروث.

مادامت هذه المعاني الفتنوية جاثمة في النفوس، قابعة في العقول، مفروضة في الواقع، فما للإنسان إلا حرية الجبناء، ما له إلا القناعة بالأمن المهين، أمن الرعية التي لا كلمة لها ولا شأن ولا رأي. مع الذهنيات البليدة، والأنانيات الانفرادية، والعادات المكدسة ما للإنسان إلا أن يرضى بوجود الجماد والحيوان الداجن، يتصرف فيه غيره، تفكر له الدولة، ترعاه، تدلله إن كان منها وإليها وتغنيه، أو تهدي إليه وعودا وتزف له أناشيد وطنية. بضاعة في السوق لا إنسان حر فاعل.

نجد عند الماركسيين في مكان مرموق من الإديلوجية مفهوم «الاستلاب» «aliénation» في هذا المفهوم تتلخص فلسفة ماركس الإنسانية. الإنسان عنده مسلوب من أعز شيء عنده، مسلوب من دنياه بأسرها، عندما يفصله الرأسمالي من فائض قيمة عمله. لا نحب أن ندخل في تفاصيل القاعدة «العلمية» العتيدة قاعدة «فائض القيمة» عماد الفلسفة «العلمية»، ولا نريد أن نقول عن «الاستلاب» إلا أن سرقة نتاج عمل العامل جريمة عند كل عاقل. فإذا ما اعتمدنا هذا الشعور الإنساني الشريف، شعور الغضب على المجرمين، لكي نؤسس دولة «الحرية الاقتصادية»، ولكي نطبق الاختراع الستاليني «العبقري»، اختراع الدولة الشمولية، فإنما بعنا الإنسان بضاعة القردة وسلبناه كل حرياته.

هلك أمس الخميس 20 رجب 1405ـ ستاليني ممتاز اسمه «أنور خوجا» هو رئيس الحزب الشيوعي الألباني. كانت ألبانيا بلدا مسلما، فلما غزاها الطليان في الحرب العالمية الثانية قام المظلم خوجا بتنظيم المقاومة الشيوعية. فمنذ انتصر، منذ أربعين عاما، حكم ذلك البلد الإسلامي بأسلوب الإرهاب الدائم والتصفيات الستالينية المشهورة، وحول المساجد والكنائس متاحف، وجند الأطفال للتجسس على أمهاتهم وآبائهم إن صلى بعضهم أو ملك مصحفا. انتهى به الأمر إلى أن ميز دستوره بميزة عالمية، فهو الدستور الوحيد في العالم الذي ينص على أن مذهب الدولة الإلحاد.

إننا إذ نذكر العقبة والنداء، ونذكر ضرورة محاربة الاستسلام وضرورة التحزب لله عز وجل والجهاد في سبيله، وإذ نلح على الأهمية الإستراتيجية للمنهاج لوضوح الرؤية وفعالية الإجراء، فإنما نفعل لأنه قضية حياة أو موت. فإما حياة بالإسلام المجاهد، وإلا تكن المبادرة، لا قدر الله، للمظلمين من أمثال فقيد الماركسية.

صوى الإسلام وشعب الايمان

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إن للإسلام صُوىً ومنارا كمنار الطريق. منها أن تؤمن بالله ولا تشرك به شيئا، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن تسلم على أهلك إذا دخلت عليهم، وأن تسلم على القوم إذا مررت بهم. فمن ترك من ذلك شيئا فقد ترك سهما من الإسلام، ومن تركهن كلهن فقد ولى الإسلام ظهره**». رواه بن سلام والحاكم. الصوى جمع صوة على وزن كُوّة هي علامات من الأحجار توضع على الطريق لتعرف بها. وروى مسلم، والبخاري ببعضه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**الإيمان بضع وسبعون** عند البخاري: **بضع وستون شعبة، أعلاها قول لا إله الا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**».

طريق مُعْلمة هي إذن العقبة التي نودِي الإنسان لاقتحامها، عليها معالم واضحة، بالسير حذوها يعرف السالك الاتجاه الصحيح. فمن غابت عن أفقه معلمة منها، من ضل عنها أو تنكبها عمدا، فقد ولى الإسلام ظهره. ومثَّل رسول الله صلى الله عليه وسلم الإيمان بنهر جار له فروع، فالشعبة والشعب فرع الوادي المتشعب عنه. فإذا انصبت في قلب المؤمن من كل الشعب رحمة الإيمان، واستغنى عقله من الحكمة الجارية فيها، واتبع عملية مجاري الصواب بالتزام مآخذها ومآتيها فقد تم إيمانه.

ها هو الإنسان اقتلع جذور ذاته من أرض الخمول، استمع النداء فهب للاستجابة إما مماشاة لرفقة صالحة، وإما يقظة وتوبة بعد حياة لهو وفراغ، وإما شوقا متجددا يحمله على الاستماتة في إرادة وجه الله عز وجل والسعي إليه، والتقرب والعجلة. نحن هنا في أرض الحوافز حيث تولد الحوافز وتشب وتقوى. أعلى شعب الإيمان قول لا اله إلا الله، وأول صوة على طريق الإسلام. الإيمان بالله لا نشرك به شيئا. العبد أمام ربه بلا واسطة، النداء والاستجابة في الإديولوجيات

يضعان المرشح للحزبية وجها لوجه مع عدو طبقي، أو مع محتل مستعمر، أو مع تاريخ مجيد، أو مع مستقبل ويوتوبيا. فهل معنى توجه المسلم أول خطواته إلى الله عز وجل أنه في وضع فرار من الواقع؟ أين القاعدة المادية، أين الكون، أين الزمان والمكان، أين ضرورات الصراع وضرورة التاريخ؟ لا اله الا الله تعني التحرر من كل عبودية غير العبودية لله الواحد القهار. فهل ينتج عن وضع العبد هذا وتوجهه أن ينحرف عن الكون المخلوق ومن فيه ليناجي ربه في فراغ ساكن أمين؟ كلاَّ، فإن على العبد بعد الشهادة أن يشمر عن ساعد الجد ويقتحم العقبة إلى الله تعالى. إلا يفعلْ فإنما هي شهادة باللسان، كلمة لا مدلول لها في عالم الأعمال والإنجاز.

إن توتر القلب شوقا إلى الله عز وجل يبقى أماني جميلة عقيمة إن لم يصحبه توتر العقل لمعرفة الشريعة، الطريق، المنهاج، الكتاب والسنة (كلها مترادفات)، ولم يصحبه توتر الإرادة على مدى الإنجاز وقطع المراحل. بين مرمى الطرف ومحط الأشواق وبين مواقع الأقدام في الواقع الآني مسافات شواسع. بين الفرد المؤمن وبين مطمحه المصيري في الآخرة أن يقتحم العقبة، فهو جهاد بين الجماعة المتحزبة لله عز وجل وبين أهدافها المصيرية في التاريخ أن يقتحم كل فرد منها العقبة جنبا إلى جنب مع إخوته المقتحمين ليكون جهد المجموع جهادا متظافرا.

العقبة المراد اقتحامها في حق الفرد والجماعة تتكون من واقع مرج، متحرك، معاد لإرادة السالك، مليء بالأشواك والأعداء. فإن لم يكن الفرد تربى على الجندية العنيدة، إن لم يكن مقاتلا يستهين بالموت فما دونها، وإن لم تكن الجماعة من التنظيم وصواب الرؤية وصلاح القيادة فلن يكون جهاد، بل تصالح مع الواقع في مرحلة من المراحل، في منعطف تاريخي ما، عند كبوة أخلاقية، أو عثرة تكتيكية، أو سوء تقدير أعقبه سوء تدبير.

الخصال العشر

كنت جمعت بحمد الله تعالى وحسن عونه، في كتاب «المنهاج النبوي» شعب الإيمان سبعا وسبعين شعبة، تأسيت في ذلك بصنيع علماء الحديث الذين ألفوا في الموضوع، أشهرهم الإمامان البيهقي والحليمي. وكنت قسمت هذه الشعب عشر فئات، في كل فئة شعب تتناسب فيما بينها، وتكون مجالا تربويا سلوكيا. فكأن الخصال العشر مراحل على الطريق، ومراحل صعود في العقبة. ألخص هنا في بضع صفحات ما بسطته هناك.

تكون شُعب الإيمان مضمون الإسلام ومحتوى الإيمان. ويكون ترتيبها معراجا إحسانيا يرتفع عليه المؤمن وجماعة المؤمنين من نقطة البداية في الحياة، في حضن الوالدين، إلى مقام الشهادة في سبيل الله في ساحة الجهاد.

كنا نورد المنهاج في الصفحات الماضية مبرزين معناه وغايته، النداء من الله عز وجل والاستجابة، الرحمة القلبية وسماع العبد للهداية ثم حكمة العقل الضرورية للسلوك، تلك هي وجهة المنهاج وتلك آلاته. وهنا نفصل كنه العقبة إن شاء الله تعالى. نفصل ما أجملته آيات فك الرقبة، والإطعام في يوم ذي مسبغة، والكينونة مع المؤمنين المتواصين بالصبر المتواصين بالمرحمة. السنة النبوية وبيانها للصوى والشعب شرح لكتاب الله تعالى. وما أتينا بشيء في ترتيبنا لشعب الإيمان إلا مِن قال الله وقال رسول الله. نرجو أن يوفقنا الله سبحانه وتعالى بمنه وكرمه. وسأضع إن شاء الله تحت كل خصلة ما يتفرع منها من شعب، وأرقم الشعب.

أ- الخصلة الأولى: الصحبة والجماعة: هنا بروز العبد إلى الدنيا في حضن والديه، ثم رعاية وجوده الجسمي وكيانه المادي في الأسرة والمجتمع إلى أن ينضج وعيه بوجوده، ووعيه بانتمائه لأمة ذات رسالة، وتعلقه القلبي بصاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم، ثم انخراطه في محضن إيماني، محضن الجماعة المجاهدة. وهكذا يتخذ وجهته ليتكون في مدرسة الجهاد.

شعب الخصلة:

1. محبة الله ورسوله

2. التحاب في الله عز وجل

3. صحبة المؤمنين وإكرامهم

4. التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم في خلقه

5. التأسي به صلى الله عليه وسلم في بيته

6. الإحسان إلى الوالدين وذوي الرحم والصديق

7. الزواج بآدابه الإسلامية وحقوقه

8. قوامة الرجل وحافظية المرأة

9. إكرام الجار والضيف

10. رعاية حقوق المسلمين والإصلاح بين الناس

11. البر وحسن الخلق

ب- **الخصلة الثانية: الذكر:** في الخصلة الأولى أخذنا المسلم في منبته المسلم. فإن نبت في مجتمع غير مسلم فإلى الصحبة والمحضن الإسلامي يرجع لا بد. وفي حضن الصحبة الصالحة يبدأ توجه المسلم إلى ربه عز وجل. فتجمع خصلة الذكر أنواع العبادات المشروعة التي توقظ روحانية العبد، ويعم عبيرها الجو الذي يتنفسه جند الله ليصلح المحل، وهو القلب والعقل، للتخلق بأخلاق الجندية، وللسلوك سلوكا جهاديا.

شعب الخصلة:

12. قول لا إله الا الله

13. الصلاة المفروضة

14. النوافل

15. تلاوة القرآن

16. الذكر وأثره

17. مجالس الإيمان

18. التأسي بأذكار النبي صلى الله عليه وسلم

19. الدعاء بآدابه

20. التأسي بدعواته صلى الله عليه وسلم

21. الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

22. التوبة والاستغفار

23. الخوف والرجاء

24. ذكر الموت

ج- **الخصلة الثالثة**: الصدق: عتبة للتصفية، وامتحان منه يدخل لميادين التدريب والاستعداد أصلح العناصر. الأمة عشعش فيها النفاق، فعند إعادة بناء المجتمع الإسلامي لا نكتفي بالاستماع إلى من يلهج بذكر الله ويحافظ رأي العين على الصلاة. الرحمة بما هي عطاء من الله عز وجل للعبد وعلاقة بينه وبينه لا مدخل لنا فيها. لكن نطلب من المرشح للجندية ونراقب في فئات المجتمع الإسلامي، في نشأته المتجددة، سِيمَا الصدق العملية، وبراهين الصدق المعبر عنها بالإنجاز لا بمجرد الكلام. فإنما الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل.

شعب الخصلة :

25. الإيمان بالله تعالى وبغيبه

26. الإيمان باليوم الآخر

27. النية والإخلاص

28. الصدق

29. النصيحة

30. الأمانة والوفاء بالعهد

31. سلامة القلب

32. الهجرة

33. النصرة

34. الشجاعة

35. تصديق الرؤيا الصالحة وتعبيرها

د- **الخصلة الرابعة: البذل**: في هذه المرحلة من تربية المؤمن وبناء المجتمع المتجدد، نترقب ذوبان الأنانيات. البذل عطاء وعدل وقسمة وإحسان. لا أقصد بذكر المراحل الترتيب الزمني. إنما هي اعتبارات لما نعهده من تقدم لقاء داع إلى الله عز وجل على التوبة والعبادة (الخصلة الأولى تليها الثانية)، وسبق التطهر الروحي على نبذ النفاق (الخصلتان الثانية والثالثة)، وتأخر التخلق ونبذ الشح والسماح بما في اليد على تغلغل الإيمان والصدق فيه وهكذا.

شعب الخصلة:

36. الزكاة والصدقة

37. الكرم والنفقة في سبيل الله

38. إيتاء ذوي القربى واليتامى والمساكين

39. إطعام الطعام

40. قسمة المال

هـ- الخصلة الخامسة: العلم: لابد من علم سابق، هو ذاك العلم المنصب في وعي المسلم بالمنبت أو بالتوبة من أسرته ورفقته وصحبته. لكن التعليم المنهاجي الذي يكون واسطة عقد المنهاج والشرط الأساسي لنجاح العمل هو العلم الذي يعيد في وعي المؤمن المعايير إلى وضعها الإسلامي، ويعيد في ثقافة الأمة كل معرفة كونية إلى مفصلها ومتصلها بعلم الحق، علم الوحي.

شعب الخصلة:

41. طلب العلم وبذله

42. التعليم والتعلم بآدابهما الإسلامية

43. تعلم القرآن وتعليمه

44. الحديث الشريف واتباع السنة

45. التعليم بالخطابة

46. التعليم بالمواعظ والقصص

و- الخصلة السادسة: العمل: «العلم إمام العمل» هذا حديث شريف. إن القدرة على إنجاز المهمات لا يعتد به إسلاميا إن لم يكن العمل صالح الأهداف صالح الوسائل بميزان الشرع. لهذا فإن سياج الشريعة، وصوى الطريق، ضمان لحرية المؤمن وحرية الأمة في حركتها. من كانت اللذات والمنفعة المادية هدفا له في الدنيا فسيعتبر الشريعة التي تحوط عمل المؤمن من مولده إلى مماته في كل صغيرة وكبيرة قيدا كليا شموليا. أما من يعرف أن بعد الدنيا دار الجزاء وأن الإنسان خلق للسعادة الأبدية في الجنة فحريته يحدها في العمل بما يحقق غايته، بما يرضي ربه، وليس إلا اتباع الشريعة في تفاصيل أحكامها من سبيل.

شعب الخصلة:

47. التكسب والاحتراف

48. طلب الحلال

49. العدل

50. إماطة الأذى عن الطريق

51. التواصي بالحق والصبر

52. تأييد الله عباده الصالحين بالغيب

53. البركة في أرزاقهم

ز- الخصلة السابعة: السمت الحسن: بالتحلي القلبي والعقلي بقيم الإيمان وأخلاق الإحسان يكتسب المجتمع الإسلامي المناعة ضد العدوى الحضارية المادية فيتقمص أشكالا حضارية تُظهر على السطح ما في الباطن.

شعب الخصلة:

54. الطهارة والنظافة

55. آداب اللباس

56. السمت الحسن والبشر

57. الحياء

58. آداب المعاشرة

59. الجمعة والعيدان

60. عمارة المساجد

ح- الخصلة الثامنة: التؤدة: هي الخصلة الخلقية السياسية الإستراتيجية التي تفصل بين العمل المرتجل الانفعالي وبين العمل المخطط المحكم: خصلة امتلاك النفس، والصبر على طول الطريق ومشقة العمل، والتريث حتى تنضج الثمار.

شعب الخصلة:

61. الصوم

62. القيام في حدود الله عز وجل

63. حقن الدماء والعفو عن المسلمين

64. حفظ اللّسان والأسرار

65. الصمت والتفكر

66. الصبر وتحمل الأذى

67. الرفق والأناة والحلم ورحمة الخلق

68. التواضع

ط- الخصلة التاسعة: الاقتصاد: الاقتصاد تجديد القصد، ونقد المراحل، والاستفادة من الأخطاء وتوفيق الأعمال الجزئية وتنسيقها. ثم إن الاقتصاد في اللغة والشرع توسط لا يقبل المغالاة ولا «حرق المراحل». ثم الاقتصاد بمعنى الإنتاج والتوزيع وتنظيم الملكية وما تحمل الكلمة من مدلولات عصرية.

شعب الخصلة:

69. حفظ المال

70. الزهد والتقلل

71. الخوف من غرور الدنيا

ي- الخصلة العاشرة: الجهاد: المنهاج فهم وعلم وطريق يؤدي بالمؤمن إلى نيل الدرجات العلى عند الله عز وجل بالجهاد والاستشهاد، بعد جهاد النفس وجهاد وسط الأمة. والمنهاج النبوي طريق حزب الله لإقامة دولة الإسلام على طريق الجهاد، وبالجهاد.

شعبة الخصلة:

72. الحج والعمرة

73. الجهاد في سبيل الله عز وجل

74. التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم وبأصحابه في الجهاد

75. الخلافة والإمارة

76. المبايعة والطاعة

77. الدعوة الدائمة إلى الله عز وجل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهرس

تمهيد

الفصل الأول

مفاهيم

الفصل الثاني

المنهاج

الفصل الثالث

اقتحام العقبة إلى الله عز وجل